مقابلة أدبية مع : الشاعر روجيه كايوا

الشعر بين بودلير ومندلييف

في الثامن والعشرين من تشرين الثاني الماضي نشرت ثلاثة كتب « لروجيه كايوا » دفعة واحدة : « مقاربات من الشعر » ، « لقاءات » و « حقل الاشارات » . وقد اثارت اعمال هذا السريالي القديم الذي اصبح اكاديميا فيما بعد ، اثارت ضجة كبيرة ما تزال اصداؤها تتردد في الاوساط الادبية .

بعد ثلاثة اسابيع اصيب « روجيه كايوا » بنزيف دماغي اودى بحياته .

لقد كان كايوا شاعرا وعالما . باحثا ومتخيلا في الوقت نفسه . كان مفتونا بمواطن الخيال ومسكونا بعقلانية الكون .

وسيظل المرء يتساءل مطولا عن المتناقضات الظاهرة في خط سيره : طالب في دار المعلمين ، انفصل عن التجمع السريالي بعد ان كان عضوا فيه لمدة ست سنوات عام ١٩٣٢ ليؤسس مع « جورج باتاي » كلية علم الاجتماع . غير ان ما يغريه الاكثر في تصرفات الانسان واخلاقه هو لغز الاشارات ـ كان التأمل في معنى التقديس ، في ميكانيكية الابداع الادبي ، وخاصة التأمل في الحجارة ، يحتل عالمه . كل شيء بالنسبة له متعلق بصرامة واحدة : تكوين الذرة ، الاسطورة ، الحلم وحتى صدف الشعر السعيدة ... فلنستمع الى هذا المقامر المنتصر يلعب بتناقضاته :

*** لقد شبهت حياتك بنهر أسطوري ، نهر « الفي » الذي يصب في البحر الابيض المتوسط قبل أن يخرج منه سليما ليسيل أخيرا في جزيرة صغيرة ... هل يعني هذا انك ، بعد أن غطست في محيط الكتب ، تنبثق اليوم فتشعر وكأنك لم تتعلم منها شيئا ؟**

ـ روجيه كايوا :

الواقع انني تعلمت في وقت متأخر ، وذلك بالمصادفة . كانت الحرب العالمية الاولى تشرف على نهايتها ، وكانت المدارس قد تحولت الى مستشفيات ومستوصفات ، وكان الاساتذة لا يزالون في الثكنات أو على الجبهة . وبالتالي ، فقد كنت ضحية الأمية التي امتدت طويلا . وكل ما كنت أعلمه كان يصل اليّ بواسطة الكلمات المسموعة لا الكلمات المكتوبة . لقد خزنت فيما بعد معلومات أشعرتني بالرهبة والخوف . لقد ذعرت عندما أدركت هذا التبذير في الكلمات الجديدة ، في الكلمات المخترعة وفي التراكيب . وقلت لنفسي انه يجب التوقف والانفصال عن محيط الاشارات لكي أعود الى العالم الحقيقي ...

اني اعلن بكل بساطة ان الكتب جميعها ، ان الثقافة الانسانية كلها ، مهما بلغت سعتها ، ليس لها أية صلة مع هذا العالم الحسي الذي تدعي انها تمثله .

*** هل تحذر الذكاء ؟**

ـ ر. ك. : أبدا . انا أحذر هؤلاء الذين . باسم الذكاء . جردوا أهمية الاشياء على حساب الكلمات . اني أحذر هؤلاء . بل اخافهم . اني اعتقد ان الكتابة منذ نشأتها تخيف الانسان . لقد ذعر الفيلسوف لاو تسو عندما اخترعت الكتابة في الصين . كيف لا ، والكتابة هي ذلك السحر الذي يسمح لنفسه أن يتكلم في الفراغ، أن يخلق أشياء قد لا يكون لها وجود ؟

*** هل أنت صادق عندما ترثي ابتكار اللغة ؟ أم انه مجرد تناقض صغير اضافي ؟**

ـ ر. ك. : اني أكره في الحقيقة الاكوان الزائدة والتكرارية . اني أكره المرايا التي تضاعف الصورة ، أكره الانجاب والروائيين الذين يضيفون مخلوقات الى عالم هو في حد ذاته مكتظ بالسكان ... ولهذا قررت أن اغلق الهلالين ، ومنذ الآن فصاعدا سأحاول أن أجد حكمة داخلية ، أن أجد ما كنت أملكه قبل أن أجتاز البحر ، تماما ك « الفي » . أنتم تعلمون جيدا اني لست ضد الفكر ، غير اني ضد التفكير (*) ، أي الفكرة التي فقدت توازنها ، التي تتغذى بواسطة المنازعة والغرابة فقط .

*** وهل تكون الغرابة ، هي ايضا ، عرضا منحرفا ؟**

ـ ر. ك. : بالتأكيد ... للاسف ، لقد ارتقت الغرابة في أيامنا هذه الى مرتبة المزايا الادبية في حين انها ليست بالمزية . أن يكون المرء غريبا ، ذلك لا يقتصر على أن لا يقلد أحدا ، بل أن لا يقلد . ان أهم شيء عند الشاعر هو النغمة ، هو اللحظة التي يعرف فيها المرء بيتا لهذا الشاعر . ان من الصعب جدا ، لهذا السبب ، ان يكون المرء شاعرا ، أصعب من أن يكون فيزيائيا أو رياضيا ، لان لهذين الآخرين مشاكل لغة فقط ، لا مشاكل نغم أو ايقاع .

لنأخذ مثلا تجربة « رامبو » . لقد حصل ، في بادىء الامر ، على الجائزة الاولى للابيات اللاتينية ، ثم كتب ك « تيودور دو بنفيل » ثم ك « لوكونت دوليل » ثم ك « فيكتور هوغو » ثم ك « تيوفيل غوتيه » . لقد جرّب جميع الاساليب ، حتى توصل في نهاية الامر الى أن يجد أسلوبه هو . لقد أخذت « رامبو » على سبيل المثال لان تطوره كان سريعا للغاية. عندما توصل الى النهاية ، اغلق الهلالين وذهب الى افريقيا ليمارس مهنة التجارة .

انا لا أؤمن باللانهائي ، بالمتعذر وصفه ، بالمتعذر اثباته . وامثال هذه الاشياء . أنا أؤمن بعالم متناه . عندما تجد الافكار تعابيرها ، يكون الشكل مطابقا للفكرة نفسها ، وبعد ذلك هناك التنميق غير المجدي ، هناك فن الزخرفة ، باختصار هناك التكلف .

*** ومن هنا يكون البحث عن ما تسميه « المتخيلة الصحيحة » ؟**

ـ ر.ك. : انها بالتحديد العبارة التي أتمسك بها. ان ما أسميه بالمتخيلة الصحيحة هو أن لا يكتب الكاتب شيئا ان لم يكن مضمونا من قبل الواقع . باعتبار ان الواقع يضمن عددا كبيرا من الاشياء . أنا أكره كل ما هو كيفي ، كل ما هو نزوي . لا يكفي أن يكون هنا متخيلة ، بل يجب أن تكون تلك المتخيلة متصلة بجهاز من الصدى، من السمات المتعلقة بمعطيات العالم الحسي . وبما ان العالم متناه ، كما ذكرت من قبل . فان الاشياء تتكرر بالضرورة ، تلتقي ، تتشابك . ومن هنا ينبثق الشعر . الذي هو علم الحشو في الكون . علم الاتصالات ...

*** لقد قال « بودلير » ذلك من قبل ...**

ـ ر. ك. : غير ان « بودلير » بنى حدسه على « باراسيلس » و « سويدنبورغ » وعلى تصوفهما الغريب ، في حين اني أهتم خاصة بـ « مندلياف » وبتصنيفه المرحلي للعناصر .

*** كيف يمكن للتصنيف المرحلي للعناصر أن يبرر أو أن يبني مفهوما للشعر ؟**

ـ ر. ك. : لقد اثبت مندلياف عام ١٨٦٩ ان الكون مبني على عناصر قليلة جدا تخضع لوضع معين . وتلك العناصر تتكرر ، مكونة بذلك جهازا يتجاوب فيه كل شيء ويتلاقى . وقد اضطر مندلياف حينئذ الى أن يعدّ بعض الثغرات في جدوله : مربعات فارغة ، لم يكن المرء يستطيع أن ينسبها الى أي عنصر معروف آنذاك . غير ان مندلياف غامر في وصف خصائص العناصر الثلاثة التي فقدت من الجدول . ان عبقريته تكمن اذن في وصفه للعناصر الثلاثة التي لم يتفق للكيماويين أن وجدوها في تجاربهم . وبعد أقل من عشرين عاما ، اكتشفت العناصر الثلاثة الافتراضية التي أشار مندلياف الى وجودها وحدد وزنها الذري ...

اني امنح للشاعر « سان جون بيرس » أهمية مماثلة لأنه هو بدوره بنى جداول لاحساسات متوافقة . انه يتناول جميع الاحساسات المتقاربة والمتواطئة التي تتصل بحالة نفسية واحدة في جميع العصور ، في جميع الثقافات والحضارات وفي جميع المناطق على الاطلاق ، وقد كان ، بكل بساطة ، يضعها رأسا لرأس واذا بالتحام ما ينبعث فيها . وهذا الالتحام ، في رأيي ،

(*) تستعمل الكلمة في غير المجال الفلسفي بمعنى ساخر .

هو الذي يصنع قوة الشعر . ان الشعر الحديث ، على عكس ذلك ، يمنح للصدفة حصة الاسد ، حصة مبالغا بها ، ويعتمد على المفاجأة . يجب على المفاجأة أن تكون محاطة ومسبقة بكثير من التأمل ، والا فانها تكون باهرة فقط ، بمعنى انها لا تسمح للمرء أن يرى ، انها تعميه . ويبقى هدف الشعر كما ذكرت في كتاب « نهر ألفي » ، يبقى ما أسميه « انفراج الجو النفسي » ، أي الاعتراف بسعادة ما تكون قد توصلت لا بواسطة الغبطة ، لأني لا أحب التعاريف المفرطة ، بل بواسطة انفراج الجو ، بواسطة الصفاء .

*** في أعمالك الاخيرة ، « اقترابات من الشعر » ، وخاصة « حقل الاشارات » ، تتوصل الى مذهب شعري معمم للكون .**

ـ ر. ك. : اني احاول ... كما ان المتخيلة بالنسبة لي ليست الا امتدادا للمادة ؛ فان الشعر بدوره ليس ظاهرة انسانية بحتة سببتها اللغة وحدها .

*** كيف كنت ، أنت المنحصر في حقيقة العالم ، كيف كنت سرياليا ؟**

ـ ر. ك. : لقد كنت عضوا مخلصا ومتعصبا في التجمع السريالي . كنت أعلم كلمات السر كلها وجميع النصوص المقدسة ؛ في حين ان نيتي كانت ان اسقط من الادب اهميته وان أستبدله بدراسة الغرائز والدوافع الجنسية .

من ناحية أخرى . كنت معاديا للكتابة التلقائية ، التي لم تكن تعبر بالنسبة لي عن العمل الحقيقي للفكر ، وهو المتناقض مع التلقائية . اني اعتقد ان الكتابة التلقائية هي بمثابة كلمة السر تسمح للسرياليين أن يحتفظوا بموقف سلبي ومبهور أمام « المذهل » . كان يجب على العجيب أن يكون دافعا للبحث ، لا مسندا للتفاني المتسامح .

*** هل تؤمن بنظام الاشياء ؟ « بحقيقة ابدية وخرساء كالمادة ؟ » .**

ـ ر. ك. : اعتقد ان الحقيقة ، حقيقة الكون ، التي أحاول أن أحصرها بوصف الحجارة أو الحشرات أو أي شيء يقع تحت عيني ، تلك الحقيقة الكاملة ، اعتقد انها موجودة ، غير ان الايديولوجيات أتلفتها ، أتلفها تبذير الكلمات ، هذا السرطان الضخم الذي يتمثل بالكتابة والفكر والفلسفة ، بالمكتبات والكتب والصحف . ذاك هو التكاثف الاعمى تماما الذي يحجب رؤية الحقيقة .

لنتفق جيدا : ليس ذلك فحسب هو الذي يحجب الحقيقة . ذلك هو حادث محلي ، محلي جدا . فلنلق على هذا الحادث اسم الغرب . الغرب ليس فقط ، حسب تعاريفي ، أوروبا ، بل كل بلد ، كل مكان توجد فيه مختبرات ومكاتب ومعامل ومستشفيات .

*** يخيل الينا في بعض الاحيان انك تكره العصر الذي تعيش فيه ...**

ـ ر. ك. : ان مسألة الحب أو الكراهية لا تطرح نفسها هنا . اني اعلم جيدا منذ اللحظة التي تعلمت فيها القراءة ، انني انتمي الى هذا الغرب . واعلم اني لا أستطيع أن أخرج منه . لكني أعلم أيضا ان الوصول الى الحقيقة ، في هذا العالم الذي اعتبره ككل ، أو حتى الوصول الى رؤية بعيدة للحقيقة ، أمر متعذر .

*** اذا اجبرت ان تكتب ملخصا عن حياتك الشخصية في معجم ما ، ماذا تقول عن نفسك ؟**

ـ ر. ك. : كنت دائما أنظر الى الذبابات تطير ، سواء كانت تلك الذبابات فراشات أم أفكارا . ولدي عجز آسف عليه في أن أحدد لنفسي هدفا واحدا . لكني كلما تقدمت في دراسة موضوعات غير مرتبطة أو متقاربة كالاستعارات والحروب والاحلام والمجتمعات ، أدرك ان هذا التعارض يتقارب . وليست غايتي أن أشرح الاشياء المتعذر شرحها ؛ بل أن اتجه نحو تماسك ما .

ان كان هناك شيء يغيظني ، فهو أن يعتبروني عقلانيا . أنا لست عقلانيا أبدا ، بل اعتقد ، على عكس ذلك ، ان العقل هو مجموع الآراء التي تلقيناها والاخطاء المكتسبة . لكن التماسك هو جهاز يتضمن الافكار المرتبطة والمتحركة .

*** بالرغم من صرامتك العلمية ، فانك في الواقع تحب التسكع الثقافي .**

ـ ر. ك. : بالفعل ، كان فكري دائما هامشيا . ربما لأني أدركت باكرا ان العلوم هي أيضا متقلبة .. ان اختراعا يبعد اختراعا آخر . وأن لا شيء في العلوم يعتبر صارما .

*** ما هي الصورة التي تود أن نحتفظ بها عن عملك وعن نفسك ؟**

ـ ر. ك. : صورة شاعر فقط . شاعر يجرؤ على القول : اني أتوجه الى محاور خفي ، ولكن بطريقة معينة يتوهم كل فرد معها ان كلماتي تتوجه اليه بالتحديد . نعم ، هذا ما حاولت أن افعل ... أسرار غير شخصية من طيف مختبىء لأطياف مجهولة ... (*) .

ترجمة رنا ادريس

(*) أجرى المقابلة هكتور بيانكيوتي وجان ـ بول آنتوفان ، ونشرتها مجلة « نوفيل اوبسرفاتور » ، العدد ٧٣٨ .